مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية المجلد(9)، العدد (1)، (جوان -2024)، ص 30 -43
ISSN: 2602-5566 EISSN: 2716-8999

مذكرات الأسير ريتشارد هاسليتون 1595م –أول أسير إنجليزي في الجزائر-

Memoirs of the prisoner Richard Hasleton 1595 – the first British prisoner in Algiers-

قرباش بلقاسم[1]

[1] جامعة أم البواقي، (الجزائر).kerbechb@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/01/18 **تاريخ القبول:2023/05/23**

ملخص:

الدراسة التالية هي ترجمة لمذكرة الأسير الإنجليزي هاسليتون، الذي وقع أسيرا في الجزائر سنة 1582م وحرر منها سنة 1793م، ويعتبر هاسليتون أول أسير إنجليزي يدون مذكراته الشخصية التي صدرت سنة 1595م وهي أقدم حتى من أول مذكرة فرنسية لصاحبها هنري ليسدام 1618م.

ولعل ما عاشه هاسليتون في الجزائر يعتبر حالة نادرة الحدوث بين الأسرى الأوربيين حيث قضى فترة أسره في دولتين إحداهما مسلمة والأخرى مسيحية، أين قضى فترة أسره بين الجزائر وإسبانيا، وهذا ما يجعل هذه المذكرات مهمة حيث أن صاحبها أحدث مقارنة بين وضعية الأسير الإنجليزي البروتستانتي بين أسريه الجزائريين والإسبان.

كلمات مفتاحية: ريتشارد هاسليتون؛ بريطانيا؛ إسبانيا؛ الجزائر؛ الأسر.

Abstract

The following research is a translation of the memoirs of Hasleton, an English hostage who was captured in Algeria in 1582 and liberated in 1793. Hasleton is regarded as the first English prisoner to write personal diaries, which were published in 1595, making them earlier than the first French memorandum of its owner, Henry Lesdam, which was published in 1618.

Hasleton spend two years as a captive under the ruler of the Kingdom of Coco [Kabylie region] and then escape to Algiers in 1588, which he spent three years captive, and was released The year 1592 .

Keywords: HasletonRitchard; Britain; Algiers; Spain; Captivity.

[1] المؤلف المرسل

1- مقدمة

أدى الصراع الإسلامي المسيحي إلى وقوع آلاف الأسرى في الضفتين، فمنهم من قضى أشهرا ومنهم من توفي أسيرا في المنفى، وكان من بين هؤلاء الأسرى الذين جلبوا إلى الجزائر سنة 1582م الأسير الإنجليزي هاسليتون، الذي قضى في الأسر حوالي إحدى عشرة سنة، وبعد عودته إلى الديار نشر مذكراته سنة 1595م، وتصنّف هاته المذكرات كأول مذكرة كتبها أسير بريطاني في الجزائر، وهي أسبق حتى من أول مذكرة أسير فرنسي والتي تعود لهنري دي ليسدام سنة 1608م.

ولعل ما يجعل مذكرات هاسليتون مهمة وتختلف بشكل كلّي عن مذكرات الأسرى الأوربيين الآخرين، أن صاحبها أسر في الجزائر وإسبانيا، حيث قدّم لنا معلومات هامة حول تعامل الدولتين مع أسراها، فهاسليتون بعد أن جلب إلى العاصمة الجزائرية وقضى فترة من الأسر بها تمكن من الهروب إلى إسبانيا نتيجة تحطم سفينتهم بالقرب من جزر البليار، ثم أخذ إلى مايوركا حيث أجبر على اعتناق المذهب الكاثوليكي، ليفر مجددا إلى سواحل جيجل ويقضي سنتين أسيرا لدى ملك إمارة كوكو، ليتمكن بعدها من الفرار مرة أخرى والتوجه إلى الجزائر العاصمة فقضى بها ثلاث سنوات مجدفا على السفن الحربية، ليطلق سراحه في النهاية ويعود إلى بلده الأم إنجلترا.

إن وثائقا من هكذا نوع ستساعد الباحثين في التاريخ الجزائري خلال العهد العثماني على إحداث مقاربات أكاديمية، بين وضعية الأسير الأوربي لدى الجزائري ونظيره الإسباني، خاصة وأن هذا النوع من المذكرات يصعب توفرها؛ ذلك أن أغلب الأسرى الأوربيين قضوا فترة أسرهم بالجزائر دون غيرها من البلدان الأوربية.

واعتمدنا في إنجاز ورقة البحث التالية بالأساس على المذكرات الشخصية للأسير هاسليتون نفسه، أين حاولنا ترجمتها وفق أسلوب سهل وواضح، مع التعليق والتعقيب وإبداء الرأي في الهامش، ومحاولة تصحيح ما رأيناه خاطئا والإشارة إليه في التعاليق بالهامش، وليكون البحث قارا على ضوابط منهجية فإننا سعينا إلى تقسيم المذكرة السابقة إلى مجموعة مراحل أو مباحث.

1- أسر هاسليتون وجلبه إلى الجزائر:

هاسليتون كاتب وبحارة ورحالة، ولد في إيساكس، ويعتبرأوّل أسير بريطاني في الجزائر يدوّن مذكرات أسره سنة 1595م، وأدى رواج هذه المذكرات إلى ظهورها في طبعتين خلال سنة واحدة، فكانت الأولى لدى مطبعة آدم إيسليب، والثانية بواسطة توماس بافيي سنة 1600م. (Nabil & Vitkus, 2001, p. 72)

غادر هاسليتون على متن السفينة "ماري مارتن" من لندن أواخر شهر ماي سنة 1582م والتي تعود للمالكين السيد إيستوود وإيستريدج المقيمان في ليمهاوس، حيث كانت تحمل على متنها

شحنة تجارية، ومتجهة إلى مدينة بيتراس اليونانية، الخاضعة للحكم العثماني، ويذكر هاسليتون قائلا: "لقد وصلنا المدينة سالمين غانمين خلال ثمانية وعشرين يوما"، ليغادروا بيتراس راجعين إلى الديار ، و في طريق العودة كادت تغرق سفينتهم نظير ارتطامها ببعض الصخور الساحلية بالقرب من خليج ليبانتو. (Hasleton, pp. 3-25)

وفي أواسط شهر جويلية بلغوا سواحل رأس غاتا، وعلى مسافة ليست بالبعيدة "لاحظنا وجود سفينتين، لنكتشف بعدها أنهما بارجيتين حربيتين جزائريتين"، ورغم أن الطاقم طلب من القبطان أن يريهم الجوازات التركية التي تسمح بمرور السفن الإنجليزية دون التعرض لها بسوء من قبل الرياس الجزائريين؛ إلاّ أن القبطان كان عنيفا في رده وأطلق ما يتجاوز الـ 28 قذيفة مدفع على البارجتين؛ وذلك دون إحراز أي نتيجة لأن السفينتين كانتا على بعد يسمح لهما بالمناورة، فرد الجزائريون بإطلاق النار علينا، كا راحوا يقتربون من السفينة الانجليزية حتى التصقوا بها، واستمروا في إطلاق النار ما أدى إلى غرقها، وخلال هاته اللحظات سبح الطاقم والركاب نحو البارجتين الجزائريتين أملا في النجاة، أما هاسلتون فيخبرنا قائلا: "لقد كنت آخر الناجين، لأنني أصبت بطلق ناري، أين قفز حينها تركيان [جزائريان] فوق بقايا السفينة يأملان الحصول على بعض الممتلكات الثمينة، فاحتضنني أحدهما، الأمر الذي جعلني أخرج سكيني بسرعة وأطعنه"، ثم فرّ هاسليتون سابحا إلى البحر واتجه نحو البارجة الجزائرية، فأمسك بأحد المجاديف وصعد على متنها، "فانتزعت مني ملابسي، وأخذت إلى مؤخرة السفينة أين التقيت قبطان البارجة، الذي استفسر إن كنت تاجرا، ولأني رفضت البوح بمهنتي الحقيقية؛ فإنه أمر بضربي بالسوط خمسين جلدة، وسجنني في عنبر السفينة"، وقد بقي بعدها هاسليتون على هاته الحالة يتألم في حجرته نتيجة ما تلقاه من ضربات وجروح خلال المعركة، الأمر الذي "جعلني أندب حظي السيّء".

عادت البارجة الجزائرية إلى العاصمة –الجزائر- بعد ثلاثة أشهر من الإبحار في المتوسط، وما إن "وطئت قدماي الساحل حتى تم بيعي مقابل ستة وستون دوبل[1]لأحد القباطنة الجزائريين، ولم يحظى هاسليتون بالراحة حيث وقع مريضا مدّة عشرة أيّام، وما إن شفي حتى رافق سيده إلى الميناء وكلّف بالتجديف على إحدى البوارج الجزائرية.

2- العمل مجدفا على متن البارجة الجزائرية وأسره من قبل الأسبان:

استمر هاسليتون مجدّفا على متن البارجة الجزائرية ثلاثة أشهر كاملة، لم يحظى خلالها بالراحة، ولم يفارقه التعب والضعف للحظة نتيجة آثار المرض، "وحتما لم يكن لي خيار سوى أن أذعن لأوامرهم أو أن يقطع رأسي".عادت السفينة الجزائرية بعد ذلك إلى العاصمة، وقد تدهورت حالته الصحية وذلك "راجع حسبه للمرض والضرب الذي تلقاه من آسريه الجزائريين"، فلم يكن

يأكل خلال إقامته بالعاصمة سوى "الخبز والماء بجرعات قليلة، ولا يرتدي على جسده عدى قميص وأسدال بالية، ويقيم على سطح أرضية إسطبل سيده الباردة"، ما جعله يائسا، وحتما لم يخفي هاسليتون تعلقه بالله مثل غيره من الأسرى المسيحيين الذين دوّنوا مذكراتهم، فكتب "لقد سلمت نفسي لإرادة الرّب ... الذي منحني في النهاية بعضا من القوة، لأقاوم يأسي". [2]

واصل اشتغاله مجدفا على متن البارجة مدّة سنتين كاملتين، إلى أن التقت سفينتهم مع بوارج تعود لبحرية جنوة قرب السواحل المسيحية، فلاحقتهم في عرض البحر، ثم نشبت عاصفة حطمت بارجتهم وأدت لجرها إلى سواحل جزيرة فورمونتيرا[3]وكان على متن البارجة حوالي مائتين وخمسين راكبا جزائريا ومسيحيا؛ لم ينج منهم سوى خمسة عشر، ويقص هاسليتون طريقة نجاته قائلا: "لقد كنت ملتصقا في القيود بالمجداف رفقة مسيحيين اثنين، وما إن بدأت السفينة في الغرق حتى حطمنا القيود وتمسكنا بالمجداف، لغاية وصولنا إلى الشاطئ ! "، حيث فرّوا إلى الأدغال واستراحوا لفترة قصيرة.

كان الأتراك يفكرون في الاستيلاء على إحدى السفن والعودة بها إلى الديار، وأما هاسليتون ورفيقيه المسيحيين فقد راحوا يفكرون في الحصول على حريّتهم، ولهذا حطموا الأغلال الملتصقة بهم، وفروا إلى الأراضي الآهلة بالمسيحيين؛ ولسوء حظّه فإن أحد رفيقيه من منطقة سلافونيا[4]وشى به للإسبان وأعلمهم أنه لوثري إنجليزي، فأجبروه [هاسليتون] على التجديف فوق أحد الغاليارات الجنوية، وأرسل بعدها إلى جزيرة إيبيزا الخاضعة للسيطرة الإسبانية التي كان يحكمها قائد من مايوركا، أين أعطيت الأوامر بأن يسجن في أحد الأبراج العالية التابعة لقلعة المدينة، ووضعت السلاسل حول رجليه ورقبته، واستمر على هاته الحال تسعة أيام لا يأكل فيها سوى القليل من الخبز والماء.

لام هاسليتون آسريه الإسبان عن سوء المعاملة التي يتعرض لها والتي تخالف القوانين والأعراف المسيحية، "وقد أكد له آسروه الجدد أنه لم يرى شيئا من العذاب بعد، حيث سيرسلونه إلى مايوركا ليخضع للمساءلة أمام محكمة التفتيش".

3- هاسليتون أمام محكمة التفتيش الإسبانية:

نقل هاسليتون بأمر من القائد الأعلى لقوات إيبيزا إلى جنوة، واقتيد في السلاسل خوفا من هروبه حيث ربط بالمجداف السادس للسفينة، واشتغل مجدفا وذلك لغاية الوصول إلى بورت سبين في مايوركا، وهناك استدعت محكمة التفتيش القبطان لتسأله عن هاسليتون، الذي رافقهم في اليوم الموالي، وما إن وصل [هاسليتون] حتى عرضوا عليه "أيقونة السلام المقدس"؛ وطلبوا منه لمسها لكنه رفض ذلك، فقاموا بشتمه ووصفوه "باللوثري"، وجلب في اليوم الموالي من البارجة إلى

ساحل المدينة [مايوركا]، أين أخذ إلى السوق، وقدم للمفتش العام، الذي أمر بأن يرمى في غياهب السجن، وربطت رجلاه في الأغلال وبقي هناك يومين كاملين، ليأخذ بعدها إلى الكنيسة للقاء مفتش محكمة التفتيش من جديد، حيث طلب منه الركوع وتقبيل بعض الصور المقدسة الملقاة على الأرض، لكن هاسلتون أعلمه قائلا: "لن أفعل شيئا أعلم أنه لا يتوافق مع أوامر الرّب القدير"، ولما سئل عن رفضه المثول للأوامر، أجاب أنه بريطاني ولم يعتد عبادة الأصنام، والتي منعت بأمر من الرب، ثم أصر المفتش عليه أن يلمس الصليب، إلاّ أن هاسليتون بصق في وجهه، فردّها عليه المفتش بلطمة قوية، وأعطى أوامره للحراس بحمله إلى الخارج، ليجلب في اليوم الثالث أمام المفتش، ورغم المحاولات المستمرّة لإغرائه استمر هاسليتون في التأكيد على أن إنجلترا هي "كلمة الله"، وعالج معه مسائل عقدية، أين كان المحقق يطرح الأسئلة في الوقت الذي يقوم فيه الأخير بالإجابة، لكن في النهاية خيّره المحقق بين الموت حرقا أو اعتناق المذهب الكاثوليكي.

وأمام جدية المفتش، راح هاسليتون يعلمه أنه سيحلف "يمينا باطلا"، ولن يعتنق الكاثوليكية إلا ظاهريا، ولينقذ نفسه أجاب على أسئلة المفتش وفق العقيدة الكاثوليكية؛ لكنه لم يعتنق المذهب في النهاية. التقى بعدأيام بالمفتش، وبعد نقاشات، خاطبه هاسليتون منتقدا إياه، ومؤكدا على أنه خلال الخمس سنوات التي قضاها في الجزائر، أنقذه الله منهم ورماه بين أحضان المسيحيين؛ "لكنني رأيت أن وحشية هؤلاء المسيحيين أكبر من تلك التي قضيتها بين الأتراك"، ثم راح هاسليتون يسأل المفتش حول وضعيته كأسير في حال استمرت الحرب الاسبانية الانجليزية ولم يوقع السلم بين الملك الإسباني والملكة إليزابيث، وهل سيبقى عبدا لديهم"، فأجابه المفتش: "نعم، إلا إذا اعتنقت الديانة الكاثوليكية".

4- محاولة الفرار الأولى:

ورغم هاته المغريات والتهديد بالموت إلاّ أنه استمر ثابتا على مذهبه وفق ما أورده في مذكراته الشخصية، وبعد أن آيسوا لحاله "وصفوه "باللّوثري الوقح"، واعترفوا "أن له دما لوثريا نظير ثباته"، ليقرر المفتش في النهاية رميه في زنزانة بأحد قلاع المدينة، الواقعة ثلاثين قدما تحت الأرض، حيث كانوا يطعمونه مرة كل يوم بعضا من الخبز والماء، ينزلونه في سلّة عبر حبل يصل الزنزانة بالغرفة العلوية، أين استمر هناك سنة كاملة، وفي حفلات شهر ماي قام الحارس بتكليف ابنه بأن يمنح هاسليتون الطعام، وبعد أن أنزل السلة ليطعمه نسي أن يسحب الحبل وغادر المكان.

تمكن هاسليتون أن يخرج من الزنزانة، ويختبئ في إحدى الغرف التي كان يوجد بها الجير والأتربة، واستلقى هناك وقد غطى وجهه ورأسه بقطع من القماش، ليمنع عنه الغبار، واختبأ

لغاية منتصف الليل، وبعد أن أمن عدم وجود أي شخص في القلعة، خرج ليجد لنفسه مكانا يفر عبره إلى الخارج؛ لكن دون جدوى، وبعد أن آيس من الوضع، "صلّى لربه ودعاه مخلصا"[5]وبعد عدة محاولات اكتشف نفقا به بوابة مائية، تمر تحت جدار القلعة، فرمى نفسه مغامرا وسط المياه حيث تمكن في النهاية من الخروج، لكن الحراس اكتشفوا أمره وأطلقوا النار عليه؛ ولحسن حظّه لم يصب بأي من طلقات بنادقهم، وهرول فارّا من المدينة حوالي ستة أميال قبل أن يدركه الصباح، فاختبأ في إحدى الغابات، لغاية ذهاب الفرقة التي أرسلت للبحث عنه، وبقي هناك طيلة اليوم والليلة الموالية.

ارتحل هاسليتون بعدها نحو الجنوب عبر الغابة، إلى أن وصل إلى منطقة تدعى "بار"، حيث سمع هناك الملاحقين يسألون بحارة المنطقةعنه ، ولم يكن قد أكل منذ هروبه من الزنزانة سوى بعضا من التوت البري والجذور التي كان ينبش الأرض لاستخراجها، ولا يرتدي سوى قطعة قماش تلفّ جسده ويضع قبعة حمراء على رأسه، وهو حافي القدمين، الأمر الذي دفعه لتقطيع القبعة إلى نصفين ولفها حول قدميه ليتمكن من السير في الأحراش والغابات، ومواصلا المشي مدة ثلاثة ليال كاملة، أين التقى في اليوم الرابع أحد مسافري وساكنة المنطقة يحمل على عربته بعضا من براميل الخمر.

وقعت حينها المفاجأة، فلما سأله الرجل المسافر عن وجهته أكد هاسليتون أنه يتجه إلى ساحل كوثيا، وفي خضم ذلك راح الرجل يعلمه بأنه أحد متعقبيه الذي أرسلتهم محكمة التفتيش لأجل البحث عنه، وطالبه بأن يسلم نفسه، لكن هاسليتون اشتبك معه وطعنه في الصدر بعمود، فصرخ الأخير متألما الأمر الذي أثار انتباه الحراس، فسارع خمسة عشر منهم وتمكنوا من إلقاء القبض على هاسليتون وتقييده، وإعادته إلى الزنزانة أين وضعت في رجليه سلاسل حديدية تقيد أيضا رقبته، وقابل في اليوم الموالي المفتش الذي سأله قائلا: "لماذا هربت؟"، فرد هاسليتون: "لإنقاذ نفسي!".

5- التعذيب والقسوة الإسبانية !

تقرر بعدها عقابه، وأخذ إلى زنزانة تحت الأرض، ليجد هناك أربعة أشخاص في انتظاره، حيث أخذوه بعدها إلى غرفة فارغة، فجردوه من جميع ملابسه تحضيرا للتعذيب، وهناك "دعوت الله أن يقوي إيماني، ويهبني الصبر"، ليبدأ التعذيب بشكل "يندى له الجبين" حسبه، فتقدمت بعدها امرأة تشتغل كمترجمة، وطالبته بأن يعترف بالديانة الكاثوليكية، لكنه أجاب قائلا: "إذا كانت رغبة الربّ أن أموت تحت أيديهم الوحشية، فإنّي سأكون سعيدا لذلك... وإن أراد الرب إنقاذي فإنه سيفعل ولو كانوا عشرة آلاف"، وهكذا استمر جلد هاسليتون بقوة، ليأمر بعدها رئيس

معذبيه بأن هذا النوع من التعذيب لم يعد كافيا، فقاموا بسكب الماء في فمه عبر أنبوب يمر من خلال حنجرته، الأمر الذي كاد أن يقطع أنفاسه ويودي بحياته، ليدخل بعدها المعذبون قطعة قماش مبللة في فمه ما أدى إلى اختناقه، واستمر تعذيبه بأساليب متنوعة تجعل القدرة على تحملها أمرا مستحيلا.

وبالنسبة لهاسليتون فإن مقاومته كانت بسبب روحي، وهي ذاتها النظرة التي أرخت لنوع من الكتابات التي طغت عليها الصبغة الدينية، ما جعل "التضخيم" في الرواية والقصة حالة طبيعية، ينظر فيها الكاتب إلى نفسه على أنه يخدم "الأمة والمعتقد"، وبعد أن سألته المترجمة إن كان قد اكتفى من التعذيب: "راح يدعو الرب بأن يجعل عذابه سهلا، وأن يغفر ذنوبه، فرغم قدرتهم على التحكم في جسده؛ إلا أنهم غير قادرين على إقناع عقله بوثنيتهم"، وبعد أن فقد الوعي "وصرخت المترجمة "لقد توفي"، حمل إلى الغرفة السابقة.

استمر الألم ينخر جسده خمسة أيام، وما إن استرجع بعضا من قواه، وأطعم خبزا وخمرا، جلب إلى المدينة على ظهر حمار، وجلد بالسياط في كلّ شارع من شوارع مايوركا، أي ما عدده خمسمائة جلدة كانت مدعاة لتدفق الدم من جسده، وقد رافقه في المدينة العديد من العاهرات والمجرمين، لكن لم يعذب أحد مثله، فراح هاسليتون يكيل لهم الشتائم قائلا: "الطواغيت الأسبان والوحوش الرومان [الكنيسة الكاثوليكية]، يعتقدون أنهم الكنيسة الحقة، ولهم الحق في الدفاع عن كنيستهم بالنار، والتعذيب الجهنّمي، دون رحمة ولا تقوى".[6]

5- الفرار نحو جيجل!

وبعد يومين من تعذيبه في الشارع، قرر أن يدعو الله ليساعده على الفرار، وبعد مدة من الدعاء أبصر في الغرفة إحدى الكتل الحديدة ملقاة على الأرض، فاستخدمها لتحطيم الحائط، وتمكن من أن ينزل البرج، وغادر عبر بوابة مائية، وفر إلى الغابة أين كان يقضي يومه في الغابة، ليسافر ليلا عبر الغابات والجبال، خوفا من اكتشافه من قبل ملاحقيه الإسبان الذين أرسلتهم محكمة التفتيش، وفي الليلة الثالثة وصل إلى حقل زيتون لا يبعد كثيرا عن البحر، ووجد هناك قاربا قام بإعادة تأهيله، والعودة به إلى البحر، وفي صباح اليوم الثاني من إقلاعه، لمح عن بعد سواحل المغرب العربي، ليرسوا في النهاية على سواحل إمارة كوكو التابعة لمدينة جيجل آنذاك، "وقد أكد أن الأسبان كانوا يغيرون على سواحل المنطقة فيأخذون أي جزائري يصادفونه على الساحل ويستخدمونه مجدفا على السفن الإسبانية، وكرد فعل راح الجزائريون يردون على الفعل الإسباني بأن هاجموا السواحل الإسبانية وأسروا كل مسيحي يقابلونه، لكن وعكس الأسبان فقد استخدم الجزائريون أسراهم بشكل لائق".

بقي هاسليتون مختبئا في الغابة خوفا من الوقوع أسيرا بيد ساكنة المنطقة، لكن التعب كان قد أجهش عليه نتيجة الجوع؛ ذلك أنه لم يكن يأكل سوى ما تجود به عليه الطبيعة، وقرر حينها أن يتجه نحو العاصمة الجزائرية، أين توجد السلطة المركزية، وبعد فترة من السير التقى رجلا مسنا يزيل الأعشاب الضارة عن حقل القمح خاصته.

تحدث هاسليتون معه بلغة الفرنك، وقصّ وقائع أسره لدى الأسبان، والتعذيب الذي تلقاه من قبلهم، فعامله الرجل بلطف كبير، حتى أن هاسليتون ذكر في مذكراته: "لقد أظهر لي هذا الأب الطيب المسن نفسه كمسيحي أكثر من كونه جزائريا نشأ على الديانة المحمدية [الإسلامية]"، اقتاده الرجل بعدها إلى منزله ومنحه طعاما لم يتناول مثله منذ ست سنوات، وعامله بطيبة خلال فترة أقامته.

أقام هاسليتون لدى الرجل المسنّ أربعة وعشرين ساعة، فزاره سكان القبائل المجاورة بعد أن سمعوا خبر وجود رجل إنجليزي في المنطقة، فسألوه من يكون؟ وعن سبب قدومه، وبعد نقاش حاد معه أخرجوا أسلحتهم حتى اعتقد هاسليتون أنه هالك لا محالة، غير أن الرجل المسنّ الطيب تصدى لهم في النهاية واعترض سبيلهم وأدخله إلى المنزل مرّة أخرى.

6- هاسليتون أسير لدى أمير كوكو.

ترجاه بعد ذلك هاسليتون أن يساعده على الوصول إلى الجزائر العاصمة، فجعل الرجل الطيب تحت خدمته جزائريان، أحدهما ابنه، وكرد للجميل وعدهما هاسليتون بأن يمنحهما أربعة كراونات[7]ولأن الوصول إلى الجزائر كان يحتاج إلى تسلق الجبال والطرق الوعرة، فإن الجزائريان اتصلا بأحد موردي "الملك الجزائري"[8]، الذي كان في طريقه إلى إيصال شحنة من الذرى والقمح إلى العاصمة، فأعلماه بأنهما يريدان نقل الرجل الإنجليزي الفار من أحد السواحل الإسبانية المسيحية إلى الجزائر العاصمة.

قام عندها المورد الجزائري بأخذ هاسليتون رفقته طالبا من الجزائريين الآخرين العودة من حيث أتيا، لينقله معه في البداية إلى أحد القرى المجاورة، وفي الطريق طلب منه "اعتناق الدين الإسلامي، على أن يحصل نتيجة ذلك على امتيازات عظيمة تجعل منه رجلا عظيما"، لكن هاسليتون رفض الأمر، وفي اليوم الموالي وصلوا بلدة تامغوت[9]وسلمه لأحد الرجال المتنفذين[10]في المنطقة، والذي يملك علاقات مباشرة مع الباشا نفسه. عرض النبيل الجزائري[11]أيضا على هاسليتون اعتناق الإسلام، إلاّ أنه رفض الأمر مجددا[12]فقام الأخير بوضعه في الأغلال وأرسله إلى مملكة كوكو التي كانت في حالة حرب مع الملك الجزائري.

التقى بعد وصوله المملكة حاكم كوكو، الذي سأله عما يجيد فعله؟ فأجابه هاسليتون أنه لا يجيد فعل أي شيء، ليسأله الملك قائلا: "هل اشتغلت سابقا في المدفعية؟" ، فأجاب مجددا بأنه لا يجيد استخدام المدفعية، وبعد أن باءت محاولات الملك بالفشل عرض عليه الإسلام، ووعده أن يجعل منه عضوا في حاشيته، غير أن هاسليتون رفض طلبه وترجّاه السماح له بالرحيل إلى الجزائر العاصمة، ليغادر من هناك إلى الديار فيلتقي زوجته وأولاده، واستمر ملك كوكو يحاول إغرائه لاعتناق الإسلام، وأمام تمسك هاسليتون برأيه، أعطى الملك أوامره بأن يرمى في السجن، وخاطبه قائلا: "إما أن تعتنق الإسلام أو أن تقضي ما تبقى من حياتك أسيرا في زنزانة"، واستمر الملك في إرسال أفراد من حاشيته أملا في إقناع هاسليتون بتغيير رأيه واتباع أوامره أين سيحصل على فوائد جمّة نتيجة الإذعان.

كان الملك خلال هاته الفترة يقوم بالتحضير لاستقبال ملك قلعة بني عباس؛ أين اتفق الطرفان على تجميع قواتهما لأجل الدخول في حرب ضدّ الباشا الجزائري، فأُخرج هاسليتون يوم قدوم الملك [بني العباس] وكلّف بقيادة المدفعية خلال مراسيم الاستقبال، ورغم تردد هاسليتون إلا أنّه وافق في الأخير على مضض أملا في أن يخلى سبيله؛ ذلك أنّ جنود الأمير لا يجيدون استخدامها [المدفعية].

استقر ملك بني عباس في المنطقة، للتشاور مع ملك كوكو حول مخرجات الحرب ضدّ الباشا، والتقى هاسليتون في اليوم الموالي ملك بني العباس الذي طلب منه أن يرافقه إلى مملكته لكن ملك كوكو رفض الأمر، ثم عرض الأخير [أمير كوكو] مجددا على هاسليتون أن ينطوي تحت لوائه ويعتنق الإسلام مقابل أن يمنحه سبعمائة دوبل سنويا. وقطعة أرض ذات جودة تدر عليه الكثير من القمح وحصان وبندقية وسيف وبعض الأمور الضرورية التي يحتاجها، وأن يجعل له زوجة من المنطقة مجانا[13]وبعد أن رفض الأمر انتهى الملك إلى أن يرسل الملكة وحاشيتها من النساء للحديث معه، وفعلا اجتمع بالملكة التي أغرته بمجموعة الامتيازات ، وهي مغريات لن يحصل عليها في إنجلترا، كما حاولت إغراءه بالزواج من نساء المنطقة، لكنه أكد للملكة بأنه يملك زوجة وعدها أمام الرّب والعالم، بأن لا يفترق عنها ما دام حيّا، ورغم إغراءاتها إلا أنه لم يذعن لطلباتها.

أرسل هاسليتون لاحقا ليؤديّ الأعمال الشاقة، وبعد أن أدى واجبه على أكمل وجه، نزعت عنه الأغلال، وطلب منه الملك بأن يُعلّم نجاري المملكة بناء منازلهم بالخشب على الطريقة الإنجليزية، حيث كان يُرسل مع النجارين والعمال إلى الغابة لقطع الأشجار واستخدام خشبها لصالح احتياجات المملكة، واكتسب مع الوقت ثقة جعلت الملك ينصبه مسؤولا عن العمال. عومل هاسليتون بشكل لائق، وتحصل على المزيد من الحرية، لكن ورغم هذا إلاّ أن بقاءه في المنطقة استمر يؤرقه، فأصبح يفكر في الحرية تحت ثلاثة دوافع:

- استمراره في المنطقة يعني استمرار الإغراءات ما قد يؤدي إلى تخليه عن المسيحية ليعتنق دين الإسلام، "دين الوثنية" كما وصفه.
- حبه وواجبه وولاؤه الذي يدين به لملكته وبلده الأم.
- النذر الذي أعطاه لزوجته وأولاده.

تمكن هاسليتون من الفرار من المنطقة في أحد الأيام؛ لكن جهله بتضاريسها إضافة إلى وعورة الجبال، وإحاطة سكان المنطقة بالغابات والجبال، جعل هروبه مستحيلا، فقد ألقي القبض عليه وأعيد إلى المملكة، ليمثل أمام الملك، الذي أمر حراسه بأن يطرحوه أرضا على بطنه، فجلد خمسة وسبعين جلدة، حتى أنّه لم يعد يقوى على الحركة، وسجن بعد ذلك مدة شهرين كاملين.

7- الفرار نحو العاصمة وإطلاق سراحه:

أخرج هاسليتون من السجن، وكلّف بجلب الماء يوميا من إحدى الآبار على ظهر حمارين، لمنزل الملك. وخلال هذه الأثناء زاره بعض الحرفيين الذين طلبوا منه مساعدتهم في صناعة بعض الأدوات، وهكذا تمكن من استرجاع الثقة وكسب بعض المال، فتمكن من شراء ملابس جزائرية ورمحا وسيفا، وخبأها في أحد الكهوف بالقرب من الآبار التي كان يجلب منها المياه؛ وفي أحد الأيام التي زار فيها ملك بنو عباس المملكة، للتشاور مع ملك كوكو حول الحرب ضد الأتراك، كلّف هاسلتون بجلب المياه لوحده، وذلك لأن الجميع رفض ذلك لسوء الأحوال الجوية وتساقط الأمطار، وما إن وصل إلى البئر حتى ارتدى الملابس الجزائرية وأخذ السيف إلى جانبه والرمح على كتفه، وسلك طريقه يرشد الجزائر. كان هاسليتون يمشي في الليل قاطعا الغابات والجبال، ما إن تشرق عليه شمس الصباح حتى يستلقي في الغابة وينام، ليقلع مجددا في رحلته بالمساء.

وفي اليوم الثالث من رحلته بلغ جسر يقع على مجرى مائي، يخضع لحراسة مشددة، ولم يكن هناك طريقة لتجاوز الجسر إلا من خلال العبور عبر النهر؛ الذي كانت مياهه عميقة، فقرر أن يأخذ طريقه عبر الجسر في الليل، وعندما كاد يتجاوزه، ناداه أحدهم وطلب منه التعريف بنفسه، فأجابه هاسليتون قائلا: "إنّني مبعوث الملك إلى الباشا التركي"، وفعلا تلقى الحارس كلماته باطمئنان، وسمح له بالمرور إلى وجهته القادمة. وبعد يومين بلغ نطاق الجزائر العاصمة مركز حكم الباشا الجزائري، حيث لم يعد ممكنا إعادته إلى إمارة كوكو.

شكر هاسليتون الرب، خاصة وأن المنطقة التي عبرها مليئة بالوحوش الحيوانية، مثل الأسود والذئاب والدببة والقرود والخنازير البرية، بالإضافة إلى الحمير والأحصنة البرية وغيرها من الوحوش، وحسب هاسليتون فإنّ " منطقة القبائل تعتبر غنية بجميع أنواع المعادن مثل: الذهب

والحديد والفضة وغيرها، فيقول: "رغم ما جاد به عليهم الرب من معادن إلا أنهم يستغلّوا أيا منها باستثناء الفولاذ والحديد"، فقد رأى في أحد المرات التي كان يشتغل فيها الحداد على صناعة بعض الوسائل الحديدية، بقايا الذهب الخالص، حيث رماها [الحداد] دون أن يعيرها اعتبارا". ولما سئل هاسليتون عن ماهية اللون الأصفر الذي يغطي هاته البقايا أجابهم قائلا: "أنها مجرد رغوة ينتجها الحديد وتستخدم في الطلاء بإنجلترا"، أين رافقهم بعدها إلى الجبال فأطلعوه هناك على صخور يجمعون منها الحديد، تحوي كما هائلا من الذهب الخالص، لكن هاسليتون رفض إعلامهم بأنها مليئة بالذهب، خوفا من بقائه أسيرا لديهم مدى الحياة.

واصل هاسليتون السير وما هي إلا سوعات حتى أبصر الجزائر العاصمة، أين التقى أحد الأتراك أمام بوابة المدينة، وما إن رآه التركي حتى علم مباشرة أنه أسير سابق بالمدينة؛ فسأله قائلا: ألم تكن أسيرا لدى فلان؟ فأجابه هاسليتون بالإيجاب، فرافقه التركي وما إن وصلا وسط المدينة حتى قاده الأخير بعنف إلى مالكه القديم، لكن يبدو أن هذا المالك لم يعد مهتما به، ذلك أنه وخلال هاته الفترة بين سنتي [1587-1588م] والتي كان هاسليتون غائبا فيها عن المدينة تم تحرير جميع الأسرى الإنجليز من الجزائر، وهكذا غادر هاسليتون إلى منزل القنصل الإنجليزي، أملا في الحصول على حريته.

لم يتخذ القنصل أي إجراءات لتحريره، وأكثر من هذا طالبه بأن يسلم نفسه إلى مالكه الذي غادر معه سابقا إلى جنوة، بعد هذا عمل الأتراك على استخدام القوة لإقناعه بمرافقتهم، لكن هاسليتون استمر في الرفض، الأمر الذي دفع السلطات الجزائرية إلى إرسال قوات أمنية وأخذه إلى سجن الملك، أين احتجز مع باقي الأسرى دون أي تدخل من القنصل.

أعيد بعدها هاسليتون ليشتغل مجدفا على متن السفن الحربية الجزائرية، واستمر على هاته الحال ثلاث سنين كاملة، وكان كلما عادت السفينة إلى الساحل، إلاّ ويوجه للبقاء مع الأسرى الآخرين في السجن، ولم يكن طعامه سوى "بعضا من الخبز والماء"، وحسب هاستليتون فإنه "قضى فترة أسره في الجزائر مريضا ومستعبدا بشكل لا يصدّق".

تحصّل هاسليتون على حريته بعد تدخل بعض التجار الإنجليز لصالحه، سواء أولئك المتواجدين في لندن أو المستقرين في الجزائر، ليغادر الساحل الجزائري على متن السفين اللندينة شيروبيم بتاريخ الـ 23 ديسمبر سنة 1592م، حيث بلغ إنجلترا أواخر فيفري سنة 1593م.

واختتم مذكراته بتوجيه الشكر إلى الرّب، الذي اقتاده إلى الميناء الإنجليزي بعد أن نخر الشوق قلبه، ويقول في النهاية: "ودعوت الرب برحمته أن يطيل عمر ملكتنا الكريمة".

8-خاتمة:

انبثق عن المقال مجموعة استنتاجات جاءت كالآتي:

- يمكن لمذكرات هاسليتون أن تميط اللثام عن فترة تاريخية قلّت فيها المصادر خارج الكتابات الإسبانية المعادية للجزائر، وإذا استثنينا عملي سيرفنتيس وهايدو فإن الفترة بين سنتي 1570-1595م شهدت شحا في الأعمال المصدرية، وبخاصة مذكرات الأسرى.

- تجربة هاسليتون كأسير في الجزائر، تمثّل نمطا مميّزا للباحثين المشتغلين في حقل الكتابات الأوربية.

- يمكن لمذكرات هاسليتون أن تكون لبنة أولية متواضعة، للخروج من هيمنة الكتابات الفرنسية والإسبانية لدراسة موضوع الأسرى والعلاقات الدولية في البحر الأبيض المتوسط.

- ستساعد المذكرات في إحداث مقاربات تاريخية بين الأمتين المسيحية والإسلامية وطرق تعامل كل أمة مع الأسرى، خاصة ما تعلق بالعمل واللباس والطعام والتعذيب.

9- التعليقات:

[1]الدوبل :عملة إسبانية ذهبية.

[2]حاول هاسليتون إظهار الفضيلة الإنجليزية بمذهبها البروتستانتي، وطبع هالة الهمجية على المذهب الكاثوليكي الاسباني والدين الإسلامي.

[3]فورمنتيرا: إحدى الجزر الصغيرة تابعة لجزر البليار الإسبانية

[4]سلافونيا: مدينة تقع شرق كرواتيا.

[5]أورد هاسليتون تعلقه بالرب في أكثر من مرّة في مذكراته، حيث يمكن أن نجزم أن المذكرة بنيت على نموذج "ديني"، فكان كلما مسّه ضر أو نزلت به مصيبة صلّى لربه، فيأتيه الحل دون إطالة"، وهذا ما ورد في أغلب مذكرات الأسرى. ينظر: Francis Knight, A Relation of Seaven Yeares Slaverie Under the Turkes of Argeire, Suffered by an English Captive Merchant, Wherein is also Conteined all Memorable Passages, Fights, and Accidents, which Happoned in that Citie…, London: Printed by T. Coles, 1640.

Martin Maria, A History of the Captivity and Sufferings of Mrs. Maria Martin Who was Six Years a Slave in Algiers, Philadelphia: Rakestraw, 1809.

Okeley William, Eben-Ezer: or, a Small Monument of Great Mercy, Appearing in the Miraculous Deliverance of William Okcley, John Anthonym William Adams, John Jcphs, John Carpenter, From The Miserable Slavery of Algiers with the Wonderful Means of their Escape in A Beat Of Canvas …, London: Printed for Nat. Ponder, 1575.

[6]حاول الأسرى في مذكراتهم "إظهار المعاناة التي تعرضوا لها لأجل أن يحافظوا على ثباتهم على المذهب البروتستانتي، وكيف رفضوا الخضوع للمغريات والتهديدات لاعتناق المذهب الكاثوليكي أو الدين

الإســلامي. ينظر: Antonio de Sosa, Topoghraphy and History of algiers in an Early Modern Dialogue with Islam: Antonio de Sosa's Topoghraphy of Algiers (1612),Edited by Maria Antonia Gracès, Tr. Diama de Armas Wilson, Indiana: University of Notre Dame Press, 2011. Diego Haedo Fray, Topographie et Histoire générale d'Alger, Tr. Mounreaut et Berbrugger, 1870.
Foss John, A Journal of the Captivity and Sufferings of John Foss, Newburyport, 1798.

[7]الكراون: عملة بريطانية قديمة.

[8]الملك الجزائري: الباشا أو حاكم الجزائر التركي.

[9]تامغوت: إحدى بلديات جيجل.

[10]أطلق عليه هاسليتون في مذكراته لقب "نبيل جزائري"، وذلك تشبيها بالنبلاء الأوربيين.

[11]النبيل الجزائري: أحد أعيان المنطقة المتنفذين له علاقات مع مملكة كوكو.

[12]نلاحظ أن أغلب الجزائريين رأوا من واجبهم عرض الإسلام على المسيحيين، أملا إقناعهم بتغيير ديانتهم، خاصة ما سيطال القائم على ذلك من أجر نتيجة إدخال مسيحي للإسلام، لكن لم يجبروهم تحت طائلة التعذيب باعتناق الديانة الاســلامية، على عكس الإســبان الذين كانوا يخيرون أســراهم بين الكثلكة أو الحــرق. يــنــظــر: Emanuel Aranda, d., The History of Algiers and Its Slavery: With Many Remarkable Particularities of Africk, Written by the Sieur Emanuel D'Aranda, Sometime a Slave There, Trans. John Davies. London: John Starkey, 1666.

[13]رأى هاسليتون أن جزائريي المنطقة يشترون زوجاتهم بالمال، لكن الواقع يثبت أن ذلك هو "المهر الذي كان يدفعه الرجل الجزائري للزواج من المرأة"، ويبدو أن هاسليتون تفاجئ من فعل الجزائريين ذلك أن المرأة الأوربية هي من كانت تدفع المهر للرجل لأجل الزواج منه؛ حتى أن بعض النساء الأوربيات الفقيرات خلال هاته الفترة كن يخفن من البقاء دون زواج، مثلما حدث مع شقيقة موزارت حينما كان في بدايته الفنية ولم يكن يتحصل على المال الكافي كي يوفره لشقيقته من أجل مهر الزواج. **ينظر:** ديورانت، قصة الحضارة.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ديورانت، و. (2007). *قصة الحضارة*. ج،46. القاهرة: دار الكتاب الحديث.

2. Nabil, M., & Vitkus, *D. (2001). Piracy, Slavery, and Redemption: Barbary Captivity Narratives from Early Modern England*. C. U. Press, Éd.
3. Hasleton,Richard .(1595) .*Strange and wonderfull things. Happened to Richard Hasleton, borne at Braintree in Essex, in his ten yeares trauailes in many forraine countries. Penned as he deliuered it from his ovvne mouth*.

4. Antonio de Sosa, (2011) *Topoghraphy and History of algiers in an Early Modern Dialogue with Islam: Antonio de Sosa's Topoghraphy of Algiers (1612),*Ed. Maria Antonia Gracès, Tr. Diama de Armas Wilson, Indiana: University of Notre Dame Press.
5. Diego Haedo Fray, Topographie et Histoire générale d'Alger, Tr. Mounreaut et Berbrugger, 1870.
6. Emanuel Aranda, d., (1666), The History of Algiers and Its Slavery: With Many Remarkable Particularities of Africk, Written by the Sieur Emanuel D'Aranda, Sometime a Slave There, Trans. John Davies. London: John Starkey.
7. Foss John, (1798), A Journal of the Captivity and Sufferings of John Foss, Newburyport.
8. Francis Knight, A Relation of Seaven Yeares Slaverie Under the Turkes of Argeire, Suffered by an English Captive Merchant, Wherein is also Conteined all Memorable Passages, Fights, and Accidents, which Happoned in that Citie…, London: Printed by T. Coles, 1640.
9. Martin Maria, (1809),A History of the Captivity and Sufferings of Mrs. Maria Martin Who was Six Years a Slave in Algiers, Philadelphia.
10. Okeley William, (1575), Eben-Ezer: or, a Small Monument of Great Mercy, Appearing in the Miraculous Deliverance of William Okcley, John Anthonym William Adams, John Jcphs, John Carpenter, From The Miserable Slavery of Algiers with the Wonderful Means of their Escape in A Beat Of Canvas …, London: Printed for Nat. Ponder.